بحث محكم | قسم الدراسات الدينية | 13 نوفمبر 2017

مفهوم الجهاد في النصّ الدينيّ (القرآن والسنّة)

دراسة وصفيّة تحليليّة

عبد الباسط قموّدي
باحث تونسي

مؤمنون بلا حدود
Mominoun Without Borders
للدراسات والأبحاث www.mominoun.com

جميع الحقوق محفوظة © 2017
All rights reserved © 2017

مفهوم الجهاد في النصّ الدينيّ (القرآن والسنّة):

دراسة وصفيّة تحليليّة[1]

1 ألقيت هذه الورقة في ندوة: "الجهاد في الإسلام: معترك التأويل والتوظيف"، المنعقدة بتونس: 01 و02 ماي/مايو 2017م، تنسيق: د. بسام الجمل ود. أنس طريقي، إشراف: د. صابر مولاي احمد، مؤسسة مؤمنون بلا حدود للدراسات والأبحاث.

الملخّص:

إنّ الهدف من بحث «**مفهوم الجهاد في النصّ الدينيّ**» بالوصف تارة والتحليل تارة أخرى هو طَرْحُ ثلاث قضايا تتصل اتّصالا عميقا بالجهاد في الفكر الإسلامي. **أوّلها** تبيّن ملامح **الطّرح القرآنيّ للجهاد** لإيماننا أنّه لا يمكن تبين منطلقات قضيّة الجهاد ومساراتها إلاّ بتحديده وقد تمّ ذلك من خلال الإجابة عن أسئلة مدارها مكانة الجهاد في النصّ القرآنيّ وماهيته وفي سبيل من يكون؟ ومَنْ المطلوب مُجَاهَدَتَهُ؟ ومَنْ المدعوّ إلى الجهاد؟ وكيف يكون؟ وتعمّقنا في الطرح القرآنيّ بحثا عن ملامح صورة المجاهد في النصّ القرآنيّ والجزاء الذي وُعِدَ به لنتوقّف عند المواقف من الجهاد كما رصدها النصّ.

وبعد تبيّن خصائص الطرح القرآني للجهاد طرحنا قضيّة **ثانية** ذات صلة وهي **الانفتاح المفهوميّ للفظ الجهاد** خاصّة على لفظي القتل والقتال بعدما حُصِرَ مفهوم الجهاد فيهما وحاولنا الإشارة إلى عدد من الأسباب التي يمكن أن تقف وراء ذلك. وختمنا البحث بالنّظر في قضيّة **ثالثة** هي **فَهْمُ الجهاد في أدبيّات الصّحاح وفي التّجربة النبويّة** فتتبعنا الخصائص العامّة لفهم الجهاد في كتب الصّحاح وعرضنا إلى مثال من السيرة النبويّة في التّعامل مع المنافقين.

التّمهيد:

كثيرة هي الدّراسات والبحوث التي تناولت موضوع الجهاد وتتبّعت معناه، لكنّ القليل منها تقصّى الطّرح القرآنيّ له وتبيّن خصائصه بعيدا عن مؤثّرات الفهم الخارجيّة من المفسّرين والفقهاء وغيرهما.

ولذلك نرى أنّه من الضروريّ الفصل منهجيّا بين الطّرح القرآنيّ للجهاد وما جاء من بعده من تفسيرات وتأويلات وأحاديث. وهذا هام لأنّه يتيح لنا التعرّف على ما طَرَحَ النصُّ نظريّا وما طُبِّقَ في الواقع. بهذا الشكل نتبيّن الانزياحات الدلاليّة والفكريّة ويكون من الممتع البحث في دوافعها وخلفيّاتها بعد ذلك ما أمكن، خاصّة وأنّ آيات الجهاد تكشف عن حاجات محمد التاريخية خلال آدائه لمهمته النبوية.

فماهي خصائص الطرح القرآنيّ للجهاد؟ وماهي المفاهيم الأخرى التي انفتح عليها؟ وكيف فُهِمَ الجهادُ في أدبيّات الصحاح؟ وماهي ملامح علاقته بالتّجربة النبويّة؟

I. الطّرح القرآنيّ للجهاد:

1/ مكانة الجهاد في النصّ القرآنيّ:

ونسجّل في هذا الإطار ملاحظتين:

* الأولى: **الحضور الواضح والصّريح للفظ الجهاد في النصّ القرآنيّ**، فقد حضّ عليه في أكثر من آية وفاصلة، وخُوطب به الرّسول والمؤمنونَ وطُلِب منهم القيام به تماما كما يتعبّدون الله وأن يؤدّوه أداءهم للعبادات من صلاة وغيرها تعبيرا عن انتمائهم للدّين الجديد وتقرّبا إلى الله، وأشير عليهم بإتيانه كأيّ فعل خير يمكن أن يؤتوه[1].

* الثّانية: **المكانة المميزة التي رسمها النصّ القرآنيّ له**، إذ حاز فعل الجهاد مرتبة عالية من بين الأعمال التي يقوم بها المسلمُ، مرتبةٌ تعادل محبّة الله ورسوله. وقد حضّ النصّ عليه وبيّن أنّه لا يَمنَعُ المؤمنَ عن الجهاد في سبيل الله لا الأهلُ -خاصّة إذا كانوا كفّارا- ولا العشيرةُ ولا المالُ ولا التّجارةُ[2]. وأشار النصّ إلى أنّه فعل أرقى من سِقَايَةِ الْحَاجِّ وَعِمَارَةِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ، يلي الإيمان بالله واليوم الآخر[3].

وإذا كان الجهاد قد حاز هذه المكانة فما معناه في النصّ القرآنيّ؟

1 الحج 22/77-78.

2 كما يشير إليه قوله التوبة 9/23-24 مثلا.

3 التوبة 9/19.

2/ ماهيّة الجهاد في النصّ القرآنيّ:

وردت كلمة (الجهاد) في النصّ القرآنيّ في أكثر من موضع: بصيغة الفعل في مثل قوله (يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ) (التوبة73/9) وبصيغة الاسم في مثل قوله (إِنْ كُنْتُمْ خَرَجْتُمْ جِهَادًا فِي سَبِيلِي) (الممتحنة1/60)[4]. ومن أبرز صيغ الفعل، فعل الأمر (جَاهِدْ) الذي عبّر بشكل صريح وواضح عن الأمر بالقيام بالفعل في قوله (يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ **جَاهِدِ** الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ) (التوبة73/9) المكرّر في (التّحريم9/66)[5] أو فعل الأمر (جَاهِدُوا) في قوله (انْفِرُوا خِفَافًا وَثِقَالًا وَجَاهِدُوا بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ) (التوبة41/9)[6]. وهما فعلان يطلبان القيام بفعل الجهاد لكن دون تدقيق معناه ودون تحديد طريقته بما قد ينير سبيلا لفهمه. فكلّ ما حدّدته هذه الآيات هي الأطراف التي يجب أن تُجَاهِدَ (الرّسول والمؤمنون) والذين يجب أن يُجَاهَدُوا (الكفّار والمنافقون) وكيفيّة الجهاد التي يجب فيها الإغلاظ عليهم.

وعندما نتأمّل فعل الأمر (جَاهِدْ) في النصّ القرآنيّ بعيدا عن تعريفات اللّغويين[7] نتبيّن أنّ المعنى الذي يحيل عليه هو بذل الجُهد[8] بما هو الوسع أو تحمّل الجهد بما هو المشقة والصبر والاحتمال من أجل هدف معيّن[9] هو إحلال عهد يُعتقد أنّه الحقيقة محلّ عهد الزّيف والعمل على التوسّع في نشره والتّمكين له إعلاءً للدين وترسيخا له على اختلاف طرق التّرسيخ وأشكاله وفي لفظ الإغلاظ أحسن مثال على ذلك.

ولئن أثبت النصّ ضرورة الإغلاظ مع الآخر وأقرّه للرسول خاصّة (وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ) وحدّد مصيرهم (وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ) فإنّه لم يفرض أن يكون الإغلاظ قتلا فقط بل قد تكون الكلمة أحيانا أقسى وأكثر تأثيرا من الفعل خاصّة وأنّه لا يمكن مثلاً مجاهدة الوالدين المشركين قتالاً كما تدلّ على ذلك مادّة (جاهداك) في النصّ القرآنيّ[10] إذ القول في آيتي (لقمان14/31- 15) وآية (العنكبوت8/29) يدور حول برّ

---

4 للتوسّع راجع: تهاني جبر شعث، ألفاظ الجهاد في القرآن: دراسة دلالية، إشراف صادق عبد الله أبو سلمان، بحث لنيل شهادة الماجستير في العلوم اللغوية، غزّة، جامعة الأزهر، كليّة الآداب والعلوم الإنسانية، 1432 هـ / 2011م.

5 وهي آية لم يهتمّ العلماء بوضع سبب نزول لها ومكان لذلك، وكلّ ما جاء فيها أنّها نسخت كلّ شئ من العفو والصلح والصّفح، راجع: مجموعة من الباحثين، المصحف وقراءاته، الرّباط، مؤسسة مؤمنون بلا حدود للدراسات والأبحاث، ط1، 2016م، ج3، ص 837.

6 المائدة 35/5 والتوبة 86/9 والحج 78/22.

7 لا يمكن التعويل على كثير من التعريفات اللغوية لأنّها موضوعة بعد النص القرآني وكثير منها يمتح منه ومن أدبيات إسلامية أخرى فسّرت اللفظ «يقول ابن منظور في لسان العرب في مادة جهد «في الحديث: لا هجرة بعد الفتح ولكن جهاد ونيّة»، والجهاد محاربة الأعداء، وهو المبالغة واستفراغ ما في الوسع والطاقة من قول أو فعل، والمراد بالنية إخلاص العمل لله، أي أنّه لم يبق بعد فتح مكة هجرة لأنها قد صارت دار إسلام، وإنّما هو الإخلاص في الجهاد وقتال الكفار»، جمال الدين ابن منظور، لسان العرب، مذيل بحواشي اليازجي وجماعة من اللغويين، بيروت، دار صادر، ط3، 1414هـ، مادة جهد. فيكون البعد الديني حاضرا متجاوزا اللغوي.

8 ويتناسب مفهوم بذل الجهد مع مادّة (جَهَدَ) في المائدة 53/5 والأنعام 109/6 والنحل 38/16 والنور24 /53 وفاطر 42/35.

9 Article (gihad), EI2 , Tome II, pp.551-553.

10 في أقواله في العنكبوت 8/29 ولقمان 14/31- 15.

الوالدين وطاعتهما. فالهامّ في تعريف الجهاد في النصّ القرآنيّ هو ارتباطه بمعنى **المشقّة** والأهمّ هو **تعدّد طرقه بين بذل الجهد الماديّ أو المعنويّ والإغلاظ الماديّ أو المعنويّ أيضا**.

بهذا الشكل يعتبر الجهاد مظهرًا من مظاهر عدم القبول بالآخر المختلف وعدم السّماح له بإثبات وجوده وممارسة معتقداته وطريقةً للإقصاء تدلّ على وجود أزمة سواء لدى محمد الذي لم يستطع الإقناع بما جاء به بالحجّة والبرهان أو بالنسبة إلى الدين الجديد ككل والذي لم يستحكم في كلّ النّفوس ويتمكّن منها ولم تُغْرِ مبادئه الجديدة شقّا لا بأس به عارضه كفرا أو داراه نفاقا. ويصبح من الجائز بناء على ذلك التساؤل: فيمَ يُبذلُ جهد الجهاد؟

3/ في سبيل من يكون الجهاد:

يشير النصّ القرآني إلى أنّ جُهدَ الجهادِ يُبذل في:

*** سبيل الله**[11]: دفاعا عن الإسلام في عهد النبوّة ليستمدّ من ذلك صبغة مقدّسة لن تفارقه دعما لدينه في فترة كان الأعداء فيها يتربّصون به من كلّ جانب للإجهاز على الدعوة المحمّديّة، خاصّة وقد رأوا فيها تهديدا جديّا لمصالحهم وثورة على ما استقرّ لديهم من اعتقادات لم يقبلوا التّخلّي عنها وتحدّيا لموروث قيميّ وأخلاقيّ عن الآباء والأجداد.

وقد تكرّرت صيغة (في سبيل الله) في النصّ القرآني في سياقات مختلفة أبرزها سياق القتال والجهاد وارتبطت فيه بأكثر من طلب إلاهيّ[12] وأشارت إلى معنى الخضوع إلى الله والتّسليم له والاعتراف به. ولا يُفهم من صيغة «في سبيل الله» حصول فائدة ماديّة لله كما قد يتبادر إلى ذهن البعض لأنّ في ذلك تبسيط لدلالة الصيغة. فالله المُجَاهَدُ في سبيله ليس في حاجة إلى من ينصره ولا من ينفق له المال أو يسافر لأجله أو يجاهد أو يقاتل لأجله وإنّما المحتاج هو الإنسان. وربّما هذا ما جعل النصّ يشير إلى أنّ الله لا يحتكر فائدة الجهاد لنفسه فقط، فالإنسان هو الآخر مستفيد منه.

---

11 كما يشي بذلك عدد من الآيات مثل أقواله في الممتحنة1/60 والتوبة41/9 والمائدة35/5 والمائدة54/5 والصفّ 11/61 والأنفال 72/8 والعنكبوت69/29.

12 من هذه المطالب:

- الهجرة نصرة للدين الجديد وحماية المؤمنين الأوّل (الحجّ 58/22).
- الإنفاق في سبيل الله (البقرة 2/ 195).
- السّفر في سبيل الله (النساء 94/4).
- الجهاد في سبيل الله (النساء 95/4).
- القتال في سبيل الله (البقرة 190/2).

*** في سبيل الإنسان:** وهو معنى واضح وبشكل لافت في قوله (وَمَنْ جَاهَدَ فَإِنَّمَا يُجَاهِدُ لِنَفْسِهِ إِنَّ اللَّهَ لَغَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ) (العنكبوت6/29)، وهذا ما يَعقِدُ مصلحة مشتركة بين الله والإنسان عليهما الدفاع عنها. ولذلك كثيرا ما تدخّلت الذات الإلاهيّة لمعاضدة المجهود البشري مما أصبغ على الجهاد قداسة. ولا تُعتبر فكرة تدخل الإلاهي لمعاضدة البشريّ جديدة بالنسبة إلى شعوب الشرق الأدنى القديم وديانـاته إذ يشارك سيد القبيلة الحرب وكذا يفعل الربّ يهوه عند اليهود عندما يعضد قومه في الحروب.

لقد كانت فكرة القتال في سبيل الله شائعة في التقاليد الدينية التوحيدية وكانت المعارك قبل الإسلام تنطلق من خلفيّة القرابة الدمويّة والعصبيّة القبليّة من أجل حمايتها لكن في الدين الجديد أصبحت المسؤولية الدينية تتطلب القوّة لحماية المجتمع الجديد والدفاع عن واحديّة الله وتعزيز مملكته في الأرض.

4/ فيمن يكون الجهاد في النصّ القرآنيّ؟

تشير آيات النصّ القرآنيّ إلى أنّ الجهاد في الكفار والمشركين[13] والمنافقين. لم يتعامل النصُّ القرآني مع الكفار والمشركين معاملة واحدة بل حسب مهادنتهم للمسلمين ومسالمتهم ومدى عداوتهم للمسلمين ومحاربتهم لهم. وقد عرفت العلاقة أوج توترها في ما أعلنته سورة التوبة إذ تبرّأ النصّ القرآني من المشركين والكفّار ودعا إلى محاربتهم قاصدا كل الذين لم يدينوا بالواحديّة على أساس تعاليم الدين الإسلامي[14]. ومن المؤكد أنّ السبب لا يقف عند مجرد امتناعهم عن الدخول في هذا الدين الجديد بل يعود إلى سبب أعمق وهو التّقاطع بين المصالح الاجتماعية والاقتصادية بعد انقطاع الصّلات الأعمق وهي الصّلات الدينية[15]. ولذلك يتوجّه الخطاب في آيات الجهاد للكافرين الذين لم يتخلّوا عن روابط القرابة ولم يعوّضوها بالولاء للمجتمع الإسلامي وفضّلوا انتماء القرابة القديم ورفضوا الانتماء الديني الجديد. لقد كانوا متردّدين ومنزعجين من إجراء مثل هذا التغيير الجذري في هوية المجموعة.

---

13 تردّدت كلمة المشركين في القرآن 45 مرة بأشكال وصيغ مختلفة منها المفرد ومنها الجمع المذكر السالم والمؤنث السالم. ورجّحت حياة عمامو أنّ هذه التسمية قد أطلقت في القرآن على القرشيين الذين يعتقدون في إلاه أسمى ويشركون به آلهة صغرى محليّة من الأصنام وهم الذين أطلق عليهم القرآن اسم الكفار بمعنى الجاحدين. كما أشارت إلى أنّ هؤلاء المشركين قد تعايشوا مع أصحاب محمد في مكة منذ بداية الدعوة الإسلامية وارتبطت علاقات بينهما تدرجت شيئا فشيئا نحو القطيعة والعداء كما أشار إلى ذلك النص القرآني وحذر منه في الآيات والسور التي اعتبرت مكية أو من الشرك بصفة عامة كما في يونس 105/10 أو يوسف 108/12 إلى أن دعا إلى ضرورة القطع مع عقيدة المشركين (الحجر94/15) وقطعا باتا بينهم وبين أصحاب النبي 121/6-122 (حياة عمامو، أصحاب محمد ودورهم في نشأة الإسلام، تونس، دار الجنوب للنشر، 1996، ص 290). أما فيما اعتبر سورا مدنية فقد دعي المسلمون إلى الانفصال عن المشركين والبراءة منهم في البقرة135/2 وآل عمران97/3 وتوعدهم بعذاب ونار جهنم بل دعا إلى قتالهم.

14 حياة عمامو، أصحاب محمد، ص 291.

15 حياة عمامو، أصحاب محمد، ص ص 291-292.

أمّا المنافقون[16] فيتميّزون بالخداع[17]، بإظهار إيمانهم وإخفاء كفرهم[18]. وقد توعّدهم النصّ بجهنّم[19]. وهم مجموعة نشأت في المدينة بعد هجرة الرسول وأصحابه إليها. أولاهم النصّ القرآني اهتماما خاصّا كاليهود وسوّاهم بهم[20] وعاب عليهم ادعاؤهم الإصلاح بين المؤمنين واليهود[21] ووعدهم بالعذاب وحذّرهم من مرض النّفاق دون أن يأمر بقتالهم مثلما فعل مع اليهود إلا في التوبة 73/9 التي نزلت لتحريض الناس للخروج إلى تبوك في 9هـ[22].

وأشارت حياة عمامو إلى أن جهاد المنافقين لا يعني القتال بالضرورة لأنّ العلاقة بينهما مشوبة بالحذر وعدم ثقة كل طرف بالآخر خاصة وأنّهم لم يعلنوا عداوتهم للإسلام وللرّسول صراحة وقد جابههم المسلمون بالشكّ حينا والمسالمة حينا آخر وعدم الاكتراث أحيانا أخرى خاصة أمام الرغبة في عدم فتح جبهات عديدة في نفس الوقت. وقد بدا التوتر بينهما في أُحُد وزاد في غزوة المريسيع (شعبان 5هـ) وبرز دورهم أكثر في غزوة تبوك إذ قاموا بدور كبير لإحباط عزيمة المسلمين وثَنيهم عن مقاتلة الروم. وكانت هذه الغزوة القطرة التي أفاضت الكأس لتنقطع العلاقة بينهم وبين المسلمين كما أعلنته سورة التوبة بعدما قُدّم النّفاق في القرآن على أنّه تواطؤ ضد الإسلام وتَنَكُّرٌ لميثاق الوحدة المدنية.

إنّ سلوك الخداع وإظهار الشئ وإخفاء الآخر والتظاهر بالقيام بالشئ والرجوع عنه أو التظاهر بالقدرة على القيام به ثم يتمُّ التّراجع عنه عندما تحين ساعة الفعل هو من سمات المنافقين وقد رصد القرآن مثالا على ذلك في سورة الحشر59/ 11-14. ويتمّ جهادهم بكشف أسرارهم ودواخلهم وأهدافهم الخبيثة وتحذير المجتمع منهم.

لقد كان اتّجاه الجهاد يسير في اتجاه واحد هو مسلمون ـ غير مسلمين والعلاقة بينهما تتحدّد عبر استراتيجيّة الدمج / النّبذ طبقا لتفاعل غير المسلمين مع النّداء الذي يدعوهم إلى إعلان الولاء أو لا[23].

16 راجع مقال المنافقون في EI2:

Brockett. A., Munafikun, in EI 2 , vol 7, pp 561-562.

وحاول م. رودنسون (M.Rodinson) تفسير هذا المفهوم بإرجاعه إلى لفظ اعتبره مستعارا من الكنيسة الأثيوبية ويعني المتمرد في دينه وهو ليس غريبا عن العرب:

M.Rodinson, Mohomet ,ed du Seuil, 1961, p217.

17 النساء 142/4.

18 التوبة 64/9.

19 النّساء4/ 140.

20 البقرة8/2 و10.

21 البقرة11/2.

22 حياة عمامو، أصحاب محمد، ص 296.

23 محمد أركون، القرآن من التفسير الموروث إلى تحليل الخطاب الديني، ترجمة وتعليق هاشم صالح، بيروت لبنان، دار الطليعة للطباعة والنشر، ط2، آذار/ مارس 2005، ص 67.

وقد صوّر النصّ القرآني المشركين والكفار والمنافقين الخاسرين التاريخيين الكلاسيكيين إذ كانوا رمزا للاستعصاء وعدم الاستقرار دون تحديد هويّة هذه المجموعات المعارضة ودوافعها بشكل دقيق في ظلّ عدم إمكانية نكران وجودها الواضح.

5/ مَن المَدعُوُّ إلى الجهادِ؟

في النصّ مدعوّان للجهاد هما:

* **الرّسول:** إذ توجّهت الصيغة الحاضّة على الجهاد بفعل (جَاهِدْ) إلى الرّسول فقط (يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ جَاهِدِ ... وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ ...) في (التوبة73/9) و(التحريم9/66) فهو المطالب بالجهاد أوّلا[24]، مجاهدة الكفّار والمنافقين.

* وتوجّه الخطاب في آيات أخرى إلى الذين آمنوا[25]. وتأتي دعوة المؤمنين إلى الجهاد في إطار حثّهم على مساندة الرّسول في مواجهته الكفّار والمنافقين وتسخير أنفسهم للجهاد مثلما سخّر الرّاهب نفسه في المسيحية لخدمة الله[26]. فكيف سيبذل الجُهدُ؟

6/ كيف يكون الجهاد؟

يتمّ الجهاد بثلاث طرق على الأقلّ:

* **الجهادُ بالنّفس**[27] ويفيد المعنى الأوّلي لهذا الجهاد معنى التّضحيّة بالنّفس في الحروب والقتال دون أن يقتصر على هذا المعنى إذ قد تكون التّضحية غير ماديّة. فتخصيص كلّ الوقت لإقناع الآخر بالدين الجديد والترويج له فيه تضحية بما يمكن أن تعيشه النّفس البشريّة من متع الحياة ومظاهرها.

* **الجهادُ بالمال**[28]، وقد وصف النصّ القرآنيّ من يجاهد بالمال بأنّه من الصّادقين وهو جهاد هامّ بل أهمّ من الجهاد بالنّفس إذا انتبهنا إلى تسبقة المال على النّفس في قوله (إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ) (الحجرات15/49)، وهذا منطقيّ

24 وفي قوله الفرقان 52/25.

25 في أقواله في المائدة 5/35-37 والتوبة 41/9.

26 يمكن القيام بدراسة مقارنة بين الطرفين لتبيّن أوجه التّشابه وأوجه الاختلاف بينهما.

27 التوبة41/9 والتوبة88/9-89 والتوبة20/9 والأنفال72/8 والصفّ11/61.

28 التوبة41/9 والحجرات15/49 والتوبة88/9 والتوبة20/9 والأنفال72/8.

من أكثر من جهة فالنصّ يحضّ على حماية النّفس[29] ويتوعّد من يهدرها بالعقاب[30]، إضافة إلى أنّ المال قوّام الأعمال.

* وقد يتمّ **الجهاد بالقرآن** كما تشير إلى ذلك آية الفرقان (فَلَا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَجَاهِدْهُمْ بِهِ جِهَادًا كَبِيرًا) (الفرقان 52/25)، جهاد الإقناع بالحجّة والبرهان ولا يخفى أنّه أصعب وأشدّ من جهاد القتال.

7/ صورة المجاهد في القرآن:

أ/ ملامح المجاهد في القرآن:

أشار النصّ القرآنيّ إلى أنّ الجهاد من صفات المؤمن الحقّ[31] دون أن يحدّد جنسه (ذكر أو أنثى) إذ يعادلُ المجاهدُ المهاجرَ والنَّاصِرَ فيتبّؤون نفس مرتبة المهاجرين ومن ناصروهم[32] بل يَفضُلُونَهم أحيانا[33]. والمجاهدُ مؤمن[34] لا يلهث وراء الماديّ، وقد وجّه النصّ لوما لمن كانوا يضربون في سبيل الله ولا يفكّرون إلاّ في المغانم بَدَلَ العدل وحسن معاملة النّاس وعدم سوء الظنّ بهم[35]. وهو صابر[36] ينتظر رحمة من الله أو مغفرة منه[37]، متميّز عن بقيّة النّاس بعدما ميّز النصّ القرآنيّ المجاهدين من غير المجاهدين[38] ورأى أنّه لا يمكن المساواة بينهم وبين القاعدين عن الجهاد[39] وأعلن أنّهم قد اخْتُبِرُوا لتمييز الجدير منهم بأن يكون مجاهدا ممن لا يستحقّ ذلك[40]، وأنّهم أصحاب أجر عظيم[41]، أولياءٌ بعضهم على بعض[42].

بهذه الملامح يبدو المجاهد كائنا مميّزا غير مفارق يتوّفر على الصّفات الأخلاقيّة التي يفترض أن تتوفّر في مُنْتَمٍ إلى الدين الجديد. فَبِمَ وَعَدَهُ النصُّ القرآنيُّ؟

29 في قوله (وَلا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلاَّ بِالْحَقِّ) الأنعام 151/6.

30 في قوله (مِنْ أَجْلِ ذَلِكَ كَتَبْنَا عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنَّهُ مَنْ قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعًا...) (المائدة32/5).

31 كما يشير إلى ذلك قوله الأنفال 74/8.

32 كما يشير إلى ذلك قوله الأنفال 74/8.

33 الأنفال 72/8.

34 الأنفال 75/8.

35 النساء 94/4.

36 آل عمران 142/3.

37 البقرة 218/2.

38 التوبة 16/9 والتوبة 19/9-20 والأنفال 74/8-75.

39 النّساء 95/4-96.

40 في محمد 31/47.

41 النساء 95/4.

42 الأنفال72/8-75

ب/ جزاء المجاهد:

أقرّ النصّ القرآنيّ جزاءً للمجاهدين شمل الحياة الدنيا والآخرة: **ففي الدنيا** جزاء المجاهد الهداية إلى سبيل الله[43]، **أمّا في الآخرة** فالجزاء أعظم درجة[44]، فيها يحصل على المغفرة وينال الرّحمة[45] ويدخل الجنّة[46]. فالمؤمنون الذين هاجروا مع الرسول أو هاجروا إليه لنصرة الحق والذين بذلوا جهدهم في مقاواة الكفار ومقاومتهم هم الذين يرجون رحمة الله وإحسانه ويدخلون الجنّة.

إنّ هذه الوعود وعود معنويّة فيها من الإغراء لأولئك المترددين للخروج إلى الجهاد لأسباب مادية أو أيديولوجية أو خوفا على حياتهم وحضّ لهم على الانخراط في المحاربة جنبا إلى جنب مع إخوانهم الجدد من المؤمنين. لقد تمّ التحوّل بنسبة كبيرة من جزاء دنيوي واحد (المغانم) إلى أكثر من جزاء أخروي وفي هذا دغدغة للوعي الأخلاقيّ الغائب بشكل أو بآخر قبل الإسلام دون أن يزدري الدين الجديد الغنائم في الجهاد. فقد أثبت التاريخ أنّ غنائم الحرب قد لعبت عاملا رئيسيا في نجاح الفتوحات الإسلامية العظيمة. ولكنّ النصّ القرآنيّ قلّل من الوعود الماديّة حتّى لا يهتمّ المسلمون بالمكاسب المادية فقط كما كان يحدث قبل مجيء الإسلام عندما كانت الأسباب الاقتصادية والإجتماعيّة هي الأكثر تأثيرا.

من الواضح أنّ من بين ما وَعَدَ به النصّ القرآنيُّ جَزَاءً ما يُغري المؤمنَ من مغفرة وجنّة تُسيل اللُّعاب وتُدير الرِّقابَ وتُذكي الحماسةَ وتُهوِّنُ الاستعداد للموت. وعود لابدّ من أخذها بعين الاعتبار في فهم فكر من صنّف الجهاد قديما على أنّه ذروة سنام الدّين وفي فهم سلوك من يتوجّه اليوم إلى الجهاد أو يتحمّس له ويكون على قناعة تامّة بتفجير نفسه لحصد هذه الوعود.

إنّ في النصّ ما يُغرِي ويُذكِي وما يبرّر الحاصل اليوم دون مواربة وبعيدا عن الخطابات التي تتحدّث عن مبالغة المتقبّل أو أنّ النصَّ القرآنيَّ يعتمد جهادا دفاعيّا أو أنّ الجهاد في النصّ القرآنيّ معنويّ، إلى غير ذلك من المقولات. فالنصّ طرفٌ فيما يحصل بوعوده التي إذا ما تلقّاها «مؤمن» له شحنة قوية من الإيمان والتقوى وعلى درجة من تمثّل الجهاد اندفاعا وقوّة وشدّة ليحصل ما يحصل. فهل كان الاندفاع للجهاد ظاهرة قديمة أيضا؟

43 العنكبوت69/29.

44 التوبة20/9 ودون تحديد ما هي هذه الدرجة العظيمة.

45 (النحل110/16)

46 آل عمران142/3

8/ المواقف من الجهاد بعد مطالبة النصّ القرآنيّ به صراحة كما رصدها النصّ القرآنيّ نفسه:

لم يرصد النصّ القرآني وجود مؤمنين كثيرين متحمّسين للجهاد وأشار إلى من تحمّس منهم في قوله (لَا يَسْتَأْذِنُكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ أَنْ يُجَاهِدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالْمُتَّقِينَ) التوبة44/9. ولا نعتقد أنّه غضّ الطرف عن التّركيز عنهم لو وجدوا فعليّا وبشكل كبير، فقد كان سيشيد بدورهم ويتباهى بهم أمام من تراخوا ولم يتحمّسوا للأمر خاصّة وقد سجّل وجود كارهين للجهاد سواء من المخلّفين[47] أو غيرهم ممن تقاعس عن الجهاد من أعراب. وهو ما يدلّ على أنّ هناك استنكافا منه وعدم تفاعل مع الدعوة إليه خاصّة وأنّ المسلمين هم عرب قبل أن يكونوا مسلمين أهل حروب وقد خبروا ساحات القتال ويعرفون مآلاته وآثاره عليهم وعلى أسرهم وقبائلهم.

ويعود رفض هذه الفئات للجهاد إلى الخيبة التي عاشوها من جراء ممارسة الجهاد. فقد قُدِّم إليهم على أنّه نضال في سبيل الله لكنّهم لم يلحظوا فيه ما يختلف عمّا عهدوه مِن قَبلُ في مجريات الصراعات والحروب السابقة أو أساليبها من حصار ونصب كمائن وقتل وأَسْرٍ وغنائمَ كانت غاياتها هي الوصول إلى السلطة وتوسيع المُلك وترسيخ الدّولة[48]. شهدوا الوجه الدنيويّ للجهاد والبعد المادّي له البعيد كلّ البعد عن وجهه الديني المعنويّ. لذلك رفض جزء كبير وقويّ من المجتمع المسلم، على الأقل لفترة بذاتها، المشاركة في الجهاد فكانت الإدانة القرآنيّة لمن رفضوه وفي شكل توبيخ إلاهيّ ومن المؤكّد أنّ وراء هذه الإدانة مشكلة استدعتها. إدانة سرعان ما طوّرها الفقهاء إلى فعل انحصر أساسا في القتل والتقتيل انزياحا عن معاني أخرى للجهاد. فكيف تمّ هذا الانزياح؟

II. الانفتاح المفهوميّ للفظ الجهاد:

انفتح المهتمّون بالجهاد على مصطلحات ذات صلة معجميّا من قبيل القتال والقتل والحرب والغزو بسبب الجهل حيناً وبسبب التقليد الأعمى حيناً آخر حتّى اتخذ مع الزمن معنى القتال تحديداً وهُمِّشت المعاني الأخرى حدّ التّلاشي وأصبح الجهاد هو أيّ عمل مسلح من أجل نشر الإسلام أو الدفاع عنه ولذلك عرّفه الفقهاء بأنّه القتال في سبيل الله كما ذهب إلى ذلك القسطلاني في قوله إنّ «الجهاد في الاصطلاح يعني قتال الكفار لنصرة الإسلام وإعلاء كلمة الله»[49].

47 في قوله في التوبة 81/9 أو 86.

48 محمد أركون، القرآن من التفسير الموروث إلى تحليل الخطاب الديني، ص 67.

49 شهاب الدين أحمد بن محمد الخطيب القسطلاني، إرشاد الساري لشرح صحيح البخاري، بهامشه صحيح مسلم بشروح النووي، مصر، المطبعة الأميرية ببولاق، 1323هـ، ج 5، ص 31.

وقد وسّع عدد من الفقهاء -وفي فترات تاريخية معروفة- هذا المفهوم ليشمل مفاهيم تنقضه من أساسه من قبيل الغزو والقتل قصد فرض الدين أو جلب المنافع المادية والاقتصادية، وهو ما يتضح من خلال ما قاله الشوكاني مثلا «..أمّا غزو الكفّار ومناجزة أهل الكفر لحملهم على الإسلام أو تسليم الجزية أو القتل فهو معلوم من الضرورة الدينية وأدلة الكتاب والسنّة في هذا لا يتّسع لها المقام ولا لبعضها، وما ورد في موادعتهم وفي تركهم إذا تركوا المقاتلة فذلك منسوخ باتفاق المسلمين بما ورد من إيجاب مقاتلتهم على كلّ حال وقصدهم في ديارهم في حال القدرة عليهم والتمكّن من حربهم»[50]. وتدفعنا عمليّة المماهاة إلى التوقّف عند الفرق بين الجهاد والقتال.

1/ الفرق بين الجهاد والقتال[51]:

من الواضح من العدد الهام لكلمة قتل وقتال ويقتلون ومشتقاتها في القرآن أنّ القرآن يتحدّث عن القتال ستة أضعاف حديثه عن الجهاد ويميز بين القتل والحرب والجهاد بدليل استعمال كل مصطلح على حدة. كما يميّز بين درجة فاعليّة كلّ واحد منها. فالنصّ القرآني لا يحتفي بالحرب مثلا إذ يغيب المعجم الحربي والعسكري ويكاد يكون معدوما لغياب ألفاظ مثل شجاعة وقوّة واستبسال، كما تغيب معاجم أخرى مثل معجم أدوات الحرب (السيف الذي لم يذكر وهو أهم أداة في تلك المرحلة، وذُكِرَ الرمحُ مرّة واحدة في سياق الحديث عن الصيد) ومعجم أسماء المحاربين (كلمة أمير وقائد ومقاتل) إذا قورنت بمعجمي القتل والقتال[52].

لذلك يُعتبر القتل أو القتال جزءا من قضية أعمّ هي الجهاد. فهما وسيلتان من جملة وسائل أخرى يمكن أن تعتمد في الجهاد إذا اعتبرنا «الجهاد كلمة جامعة شاملة يدخل فيها جميع أنواع السعي وبذل الجهود والكفاح واستخدام شتى الوسائل لإحداث ذلك التّغيير الذي تبتغي إحداثه دعوة الله المرسلة إلى بني البشر»[53].

---

50 محمد بن علي الشوكاني، السّيل الجرّار المتدفق على حدائق الأزهار، دار ابن حزم، ط1، دت، ج4، ص ص 518-519.

51 ولابدّ من الإشارة إلى وجود فرق بين القتل والقتال خلاف ما فعل العلماء الذين ماهوا بينهما وفرضوا معنى واحدا لهما وهو التصفية الجسدية لتبرير طريقة التعامل مع الآخر في الوقت الذي تتعدد فيه الدلالات المعجمية للفظين. فلئن دلّ لفظ القتل على التصفيّة الجسديّة أو الإذلال فإنّ القتال يدلّ على معنى إصابة واحد من المتقاتلين مقاتلا آخر عند القتال بجرح أو غيره، وهو ما أكده معجم "المحيط في اللغة": "قاتَلَ فلانٌ فلاناً: أي حارَبَه فأصابَ كلُّ واحِدٍ منهما صاحِبَه بجراحةٍ في قتالِه"، الصاحب اسماعيل بن عبّاد، المحيط في اللغة، تحقيق محمدّ حسن آل ياسين، بغداد، مطبعة المعارف، ط1، 1395هـ/ 1975م، مادة قتل، فالقتال لا يفترض القتل وإن كان القتل بمعنى الإذلال يفترض القتال وسيلة لتحقيقه. وهذا تعريف دقيق يفارق السائد من التعريفات التي تربط القتال بالقتل لأنّه يشير إلى أنّ القتال لا يفترض القتل بل تكفي الإصابة.

وهناك غايتان من ارتباط فعلي القتل والقتال، الغاية الأولى: التشديد على الآخر الذي أضحى عدوّا، فأسّس الفعلان إلى اللاتسامح معه لانعدام الرغبة في تفهّم آرائه المختلفة عن آراء من يدّعون الإيمان الصحيح، وهو ما انتهي إضافة إلى التمييز بين من ادّعوا أنّهم مؤمنون وبين من اعتبروا غير مؤمنين إلى ادّعاء التمييز بين دين الحق ودين الباطل (بان أسمان، التمييز الموسوي أو ثمن التوحيديّة، ترجمة حسام الحيدري، كولونيا/ بغداد، منشورات الجمل، ط1، 2006، ص ص26- 27). أمّا الغاية الثانية: ليكوّنا وسيلة دفاع عن الدين ومن اعتنقوه.

52 يشير (Reuven Firestone) إلى أنّه لا يمكن مساواة الجهاد بأي شكل من الأشكال مع معنى الحرب المقدّسة لأنّ معناها أوسع بكثير ويشمل الجهاد أنشطة لا علاقة لها بالحرب: راجع في هذا الإطار:

Reuven Firestone, Jihad: The Origin of Holy War in Islam, New York - Oxford, Oxford University Press, 1999, pp 16-18.

53 محمد نعيم ياسين، حقيقة الجهاد في الإسلام، الكويت، دار الأرقم للنشر والتوزيع، ط1، 1404 هـ/ 1984م، ص46.

ومن هذا المنطلق يتحدّد القتل والقتال طاقتين تخدمان الجهاد دون أن يتساويا معه. خلاف ما يفعله الفقهاء الذين إذا ما تحدّثوا عن الجهاد يقولون إنّ الجهاد أعمّ من القتال ولكنهم عندما يكتبون عن القتال ومشروعيته وكيفيته وشروط المقاتل والعهد والصلح...الخ، يتحدّثون عن الجهاد فيساوون بينهما. فالجهاد بالنسبة إلى الفقهاء هو الحرب والقتال، ولا نعتقد أنّ الأمر هو مجرد اختلاف في التسمية فقط بل يعكس عدم تمييز دقيق بين دلالات المصطلحات ومجالها. وهو ما يطرح إشكالية ما يزعمه الفقهاء من أنّهم يستندون في صياغة نظريّة الجهاد إلى القرآن والحال أنّ هذا النص يقدّم طرحا آخر مختلفا تماما كما أشرنا إلى ذلك سابقا في الطرح القرآنيّ للجهاد.

لقد برّر من ذهبوا هذا المذهب مذهبهم بأنّ هذا التحوّل قد شرّعت له سور وآيات اعتبروها من آخر ما نزل من القرآن مثل التّوبة 9 التي تضمّنت حوالي 10 آيات ذات صلة بالجهاد هي 19-20-41-44-45-73-81-86-88-89 والتي رتّبها الزهريّ السورة 114 واعتبرت 112 حسب ابن النديم و113 حسب السيوطيّ ونولدكه و115 حسب بلاشير[54]. تضاف إلى ذلك سورة الأنفال التي تضمّنت حوالي ثلاث آيات وقد تواترت الأخبار التي تربط بينهما، وفي أخبار أنها نزلت في بدر[55]. وسورة المائدة التي تضمّنت ثلاث آيات واعتُبِرت من آخر ما نزل حسب ما أورد القرطبي عن أبي ميسرة وقيل إنّها قيلت في خطبة الوداع[56]، وسورة النّساء 4 (فيها حوالي 3 آيات هي 94-95-96) والصفّ 61 (حوالي 3 آيات هي 11-12-13) ...الخ. لكنّ هذا الرأي يخفي حقيقة الفشل في نشر الدعوة سلميّا وإقناع الرافضين لها. فالتوجّه إلى القوّة سبيلا لفرضها هو مؤشر فشل وليس مؤشر نجاح.

لقد اكتفى النصّ القرآنيّ بالحثّ على الجهاد وقدّم له الحوافز المعنويّة والمادية لكنّ الفقهاء قننّوه في القرون اللاحقة وقسّموه إلى جهاد دفاعي أطلقوا عليه اسم «جهاد الدَّفْع» متى هُوجِمت دار الإسلام من دار الكفر وجهاد هجومي أطلقوا عليه اسم «جهاد الطلب» متى هاجمت دارُ الإسلام دارَ الكُفرِ. فهل يرتبط الجهاد دائما بالقتل وإراقة الدّماء؟

عندما ساوى النصُّ بين المجاهدِ والمهاجرِ والنَّاصِرِ في قوله (وَالَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ آوَوْا وَنَصَرُوا أُولَئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ) (الأنفال74/8) فإنّما ليثبت أنّه لا صلة للجهاد بالقوّة والعنف فالهجرة والنصرة فعلان لا صلة للقوّة بهما وعندما يعادلهما الجهاد فلأنّه من نفس الدرجة أو المعدن. ولئن صرّح النصّ بالجهاد وحضّ عليه وكان من دلالاته اعتماد القوّة مع الآخر

54 المصحف وقراءاته، ج3، ص 806.

55 المصحف وقراءاته، ج3، ص 773.

56 المصحف وقراءاته، ج2، ص 560.

فإنّ فيه آيات أخرى دعا فيها إلى حريّة المعتقد[57] وتحدّث في أخرى عن أنّ لله القدرة على جعل كلّ الناس يؤمنون[58] وعلى قدرته على نشر الأنبياء والرّسل في كلّ مكان[59] وبأنّه أعلم بمن ضلّ ومن اهتدى[60] وخيّر في أخرى الإنسان بين الإيمان والكفر[61] وحثّ على الصبر ومجادلة الآخرين بالحكمة والموعظة الحسنة[62] وعلى عدم الاعتداء على الآخرين[63] واعتماد الحوار معهم[64] وحسن معاملة غير المؤمن خاصّة أنّ الله يعلم ما يخفى وما هو يُعلن[65] وأنّه لا سلطة للرّسول على من اختار الإله الذي سيعبد[66]. فما هي الأسباب التي يمكن أن تقف وراء هذا التحوّل إذن؟

2/ من أسباب التحوّل في فهم الجهاد:

يمكن أن نحدّد ثلاثة أسباب ذات صلة عميقة بعضها ببعض قد تفسّر لنا سبب التحوّل في فهم الجهاد من دلالات متعدّدة إلى حصره في دلالة القتال. ونجمعها في أسباب ثلاثة دون أن نتوسّع في تحليلها هيّ: سبب اجتماعيّ وسبب سياسي وآخر اقتصادي.

* يتمثّل السبب الاجتماعيّ في الأسلوب الذي كان سائدا آنذاك لفرض الرأي وهو الحروب والغزوات خاصّة إذا ما فشلت مساعي العقلاء والحكماء. وحتّى يضمن الدين الجديد لنفسه درجة من الانتشار والتّمكّن كان في حاجة إلى هذا الأسلوب بعدما فشل الرسول في تبليغ رسالته لعدد هام من العرب والذين لم يتفاعلوا مع الدين الجديد فكان خيار الحرب.

* وعلى ضوء ما سيتحقق اجتماعيّا يظهر السّبب السياسيّ الذي لا يكتفي بالنظر إلى أمر نشر الدعوة من زاوية أخلاقيّة فقط بل نظر إليها من زاوية سياسيّة تتصارع فيها قوى القبائل والبيوت داخلها وهو ما يحتاج هيبة ومنعة يرون أنّها لن تتحقق إلاّ بقوّة الحرب.

---

57 كما في قوله (لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الغَيِّ) (البقرة256/2) أو قوله (قُلْ يَا أَيُّهَا الكَافِرُونَ (1) لا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ (2) وَلا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ (3) وَلا أَنَا عَابِدٌ مَا عَبَدْتُمْ (4) وَلا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ (5) لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ (6) (الكافرون109/1-6)

58 في قوله (ولو شاء ربك لآمن من في الأرض كلهم جميعاً أفأنت تكره الناس حتى يكونوا مؤمنين) (يونس 99/10)

59 (وَلَوْ شِئْنَا لَبَعَثْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ نَذِيرًا) (الفرقان 51/25)

60 وأنّه (أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ) النحل 16/ 125

61 {وقل الحق من ربكم فمن شاء فليؤمن ومن شاء فيكفر} الكهف 28

62 مثل أقواله (النحل125/16)

63 (وَلاَ تَعْتَدُواْ إِنَّ اللهَ لاَ يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ} (المائدة 5/ 88)

64 في مثل أقواله {ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ} النحل 125.

65 (مَّا عَلَى الرَّسُولِ إِلاَّ الْبَلاَغُ وَاللهُ يَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا تَكْتُمُونَ} (المائدة5/ 100)

66 (أَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ أَفَأَنْتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلًا) (الفرقان 43/25)

* أمّا السبب الاقتصاديّ فيمثّل قطب رحى هذا التحوّل من دلالات متعدّدة إلى دلالة القتال والقتل إذ تَضْمَنُ الحروب مصدر تمويل ماليّ هامّ لما سمّي بيت مال المسلمين الذي ستملأه جبايات الجزية والغنائم وحتّى عائدات فداء المشركين[67]. وسنرى آثار هذه الأسباب منعكسة على مواد كتب الصحاح والسيرة بشكل واضح.

III. فهم الجهاد في أدبيّات الصحاح وعلاقته بالتجربة النبويّة:

1/ فهم الجهاد في أدبيّات الصحاح:

دفع العموم الذي بدت عليه آيات الجهاد في النصّ القرآنيّ المفسرين والفقهاء ومؤلّفي أدبيّات الصحاح إلى تقديم تفسيرات وتفاصيل كانت ذات أهمية كبيرة لتحديد الآراء والمواقف في وقت لاحق وبعدما حافظت على تقاليد مرتبطة بالقتال وعبّرت عن وجهات نظر متباينة وذكّرت بتقاليد متناقضة محفوظة من فترات سابقة. وإذا تفحصّنا المادة التي قامت عليها أدبيّات الصحاح حول الجهاد فإنّنا نتبيّن أكثر من ملاحظة منها:

* **الملاحظة الأولى:** هي ترتيب باب الجهاد مباشرة بعد أبواب العبادات. فقد ورد كتاب الجهاد بعد كتاب الحجّ وقبل كتاب المغازي بدْءًا من كتاب عبد الرّزاق بن همام الصنعانيّ (ت211هـ) الذي أورد قطعا من كتابات ابن شهاب الزهريّ (ت124هـ) وكذا فعل مالك بن أنس (ت179هـ) الذي أورد كتاب الجهاد بعد كتاب الحج[68] وتحوّلت التسمية مع البخاري من (كتاب الجهاد) إلى تسمية (كتاب الجهاد والسير)[69]. فهل القصد من ذلك هو إدخال الجهاد ضمن العبادات الكبرى وأركان الإسلام؟ أو أنّ القصد هو التأكيد على أنّه يليها في الأهمية والمكانة؟ خاصّة وقد تواترت الأخبار التي تشير إلى أنّ الجهاد ليس من أفضل الأعمال إذ يسبقه أداء الصّلاة على ميقاتها وبرّ الوالدين كما يبيّنه هذا الخبر (حَدَّثَنَا الْحَسَنُ بْنُ صَبَّاحٍ حَدَّثَنَا مُحَمَّدُ بْنُ سَابِقٍ حَدَّثَنَا مَالِكُ بْنُ مِغْوَلٍ قَالَ سَمِعْتُ الْوَلِيدَ بْنَ الْعَيْزَارِ ذَكَرَ عَنْ أَبِي عَمْرٍو الشَّيْبَانِيِّ قَالَ: قَالَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ مَسْعُودٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: سَأَلْتُ رَسُولَ اللَّهِ (ص) قُلْتُ يَا رَسُولَ اللَّهِ أَيُّ الْعَمَلِ أَفْضَلُ؟ قَالَ: الصَّلَاةُ عَلَى مِيقَاتِهَا. قُلْتُ: ثُمَّ أَيٌّ؟ قَالَ: ثُمَّ بِرُّ الْوَالِدَيْنِ. قُلْتُ: ثُمَّ أَيٌّ؟ قَالَ: الْجِهَادُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ. فَسَكَتُّ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ (ص) وَلَوْ اسْتَزَدْتُهُ لَزَادَنِي)[70]. وعن عائشة حجّ مبرور أفضل من الجهاد في هذا الخبر (حَدَّثَنَا مُسَدَّدٌ حَدَّثَنَا خَالِدٌ حَدَّثَنَا

67 قَالَ ابْنُ هِشَامٍ: "كَانَ فِدَاءُ الْمُشْرِكِينَ يَوْمَئِذٍ أَرْبَعَةَ آلَافِ دِرْهَمٍ لِلرَّجُلِ إلى أَلْفِ دِرْهَمٍ إلَّا مَنْ لَا شَيْءَ لَهُ، فَمَنَّ رَسُولُ اللَّهِ (ص) عَلَيْهِ"، عبد الملك بن هشام بن أيوب الحميري المعافري، السيرة النبوية لابن هشام، تحقيق مصطفى السقّا وإبراهيم الأبياري وعبد الحفيظ الشلبي، مصر، شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده بمصر، ط 2، 1375هـ - 1955 م، ج1، ص 660.

68 مالك بن أنس، الموطأ، تحقيق محمد مصطفى الأعظمي، أبو ظبي/ دولة الإمارات العربيّة المتّحدة، مؤسسة زايد بن سلطان آل نهيان للأعمال الخيريّة والإنسانية، ط1، دت، ج3، ص 629.

69 البخاري، الصحيح، ج2، ص 301.

70 محمد بن اسماعيل البخاري، الجامع الصحيح المسند من حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم وسننه وأيّامه، تحقيق محبّ الدين الخطيب وقصي محب الدين الخطيب ومحمد فؤاد عبد الباقي، القاهرة، المطبعة السلفيّة ومكتبتها، 1400هـ، ج2، ص 301ن (ح2782).

حَبِيبُ بْنُ أَبِي عَمْرَةَ عَنْ عَائِشَةَ بِنْتِ طَلْحَةَ عَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا أَنَّهَا قَالَتْ: يَا رَسُولَ اللَّهِ تُرَى الْجِهَادَ أَفْضَلَ الْعَمَلِ؟ أَفَلَا نُجَاهِدُ؟ قَالَ: لَكِنَّ أَفْضَلَ الْجِهَادِ حَجٌّ مَبْرُورٌ)[71]. وفي خبر آخر يعادلُ الجهادُ الصّيامَ (حَدَّثَنَا إِسْحَاقُ بْنُ مَنْصُورٍ أَخْبَرَنَا عَفَّانُ حَدَّثَنَا هَمَّامٌ حَدَّثَنَا مُحَمَّدُ بْنُ جُحَادَةَ قَالَ أَخْبَرَنِي أَبُو حَصِينٍ أَنَّ ذَكْوَانَ حَدَّثَهُ أَنَّ أَبَا هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ حَدَّثَهُ قَالَ جَاءَ رَجُلٌ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقَالَ: دُلَّنِي عَلَى عَمَلٍ يَعْدِلُ الْجِهَادَ، قَالَ: لَا أَجِدُهُ. قَالَ: هَلْ تَسْتَطِيعُ إِذَا خَرَجَ الْمُجَاهِدُ أَنْ تَدْخُلَ مَسْجِدَكَ فَتَقُومَ وَلَا تَفْتُرَ وَتَصُومَ وَلَا تُفْطِرَ؟ قَالَ: وَمَنْ يَسْتَطِيعُ ذَلِكَ؟ قَالَ أَبُو هُرَيْرَةَ: إِنَّ فَرَسَ الْمُجَاهِدِ لَيَسْتَنُّ فِي طِوَلِهِ فَيُكْتَبُ لَهُ حَسَنَاتٍ)[72].

* **الملاحظة الثانية:** قلّلت أخبار وأحاديث من أهميّة الجهاد وأكّدت على أنّه هناك عبادات أخرى أفضل منه لو يأتيها المؤمن يمكنه دخول الجنة كما لو أنّه جاهد. وقد تواترت الأحاديث والأخبار التي لا تربط دخول الجنّة بالجهاد فقط بل بالإيمان باللّه وإقامة الصّلاة وصيام رمضان جَاهَدَ الإنسانُ أو لم يجاهد كما ورد في هذا الخبر (حَدَّثَنَا أَبُو الْيَمَانِ أَخْبَرَنَا شُعَيْبٌ عَنْ الزُّهْرِيِّ قَالَ أَخْبَرَنِي سَعِيدُ بْنُ الْمُسَيَّبِ أَنَّ أَبَا هُرَيْرَةَ قَالَ سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ مَثَلُ الْمُجَاهِدِ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَنْ يُجَاهِدُ فِي سَبِيلِهِ كَمَثَلِ الصَّائِمِ الْقَائِمِ وَتَوَكَّلَ اللَّهُ لِلْمُجَاهِدِ فِي سَبِيلِهِ بِأَنْ يَتَوَفَّاهُ أَنْ يُدْخِلَهُ الْجَنَّةَ أَوْ يَرْجِعَهُ سَالِمًا مَعَ أَجْرٍ أَوْ غَنِيمَةٍ)[73]، أو في هذا الخبر (حَدَّثَنَا يَحْيَى بْنُ صَالِحٍ حَدَّثَنَا فُلَيْحٌ عَنْ هِلَالِ بْنِ عَلِيٍّ عَنْ عَطَاءِ بْنِ يَسَارٍ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَبِرَسُولِهِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَصَامَ رَمَضَانَ كَانَ حَقًّا عَلَى اللَّهِ أَنْ يُدْخِلَهُ الْجَنَّةَ جَاهَدَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَوْ جَلَسَ فِي أَرْضِهِ الَّتِي وُلِدَ فِيهَا. فَقَالُوا يَا رَسُولَ اللَّهِ أَفَلَا نُبَشِّرُ النَّاسَ؟ قَالَ: إِنَّ فِي الْجَنَّةِ مِائَةَ دَرَجَةٍ أَعَدَّهَا اللَّهُ لِلْمُجَاهِدِينَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ مَا بَيْنَ الدَّرَجَتَيْنِ كَمَا بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ فَإِذَا سَأَلْتُمُ اللَّهَ فَاسْأَلُوهُ الْفِرْدَوْسَ فَإِنَّهُ أَوْسَطُ الْجَنَّةِ وَأَعْلَى الْجَنَّةِ أُرَاهُ فَوْقَهُ عَرْشُ الرَّحْمَنِ وَمِنْهُ تَفَجَّرُ أَنْهَارُ الْجَنَّةِ قَالَ مُحَمَّدُ بْنُ فُلَيْحٍ عَنْ أَبِيهِ وَفَوْقَهُ عَرْشُ الرَّحْمَنِ)[74].

وإذ تتواتر مثل هذه الأخبار فردّا على التي تظهر البعض متحمّسا للجهاد غزوا فلا يأتي عباداته من منطلق فهمه أنّ الجهاد أهمّ العبادات وأعظمها وهو ما يسجّله هذا الخبر (حَدَّثَنَا آدَمُ حَدَّثَنَا شُعْبَةُ حَدَّثَنَا ثَابِتٌ الْبُنَانِيُّ قَالَ سَمِعْتُ أَنَسَ بْنَ مَالِكٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ كَانَ أَبُو طَلْحَةَ لَا يَصُومُ عَلَى عَهْدِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مِنْ أَجْلِ الْغَزْوِ فَلَمَّا قُبِضَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لَمْ أَرَهُ مُفْطِرًا إِلَّا يَوْمَ فِطْرٍ أَوْ أَضْحَى)[75].

71 البخاري، الصحيح، ج2، ص 302، (ح2784).
72 البخاري، الصحيح، ج2، ص 302، (ح2785).
73 البخاري، الصحيح، ج2، ص ص 302-303، (ح2787).
74 البخاري، الصحيح، ج2، ص ص 303-304، (ح2790).
75 البخاري، الصحيح، ج2، ص 314، (ح2828).

* **الملاحظة الثالثة:** حاولت الأخبار والأحاديث الواردة في كتب الصحاح تقديم طرح آخر للقضيّة ينزاح بها عن بذل الجهد في سبيل الدفاع عن الدين الجديد إلى معاني أخرى تحوّل معها الجهاد إلى جهاد للنّفس ولذلك قابل مالك بن أنس -أو من جمع أحاديث موطّئه- بين خبر يحضّ على الجهاد الحربيّ (عن مالك ... عن عطاء بن يسار أنّه قال: قال رسول الله (ص): «ألا أخبركم بخير النّاس منزلا؟ رجل آخذ بعنان فرسه يجاهد في سبيل الله) وآخر يشير إلى جهاد النّفس (ألا أخبركم بخير الناس منزلا بعده؟ رجل مُعتزل في غنيمة يقيم الصلاة ويؤتي الزكاة ويعبد الله ولا يشرك به شيئا)[76]. وهناك أخبار تحضّ على الجهاد الحربي تقابلها أخبار أخرى تشير إلى تفضيل الاعتكاف على الجهاد الحربيّ باعتباره جهادا للنّفس وهو أصعب كما ورد في موطأ مالك، فهل يعتبر ذلك من الأسباب التي ستدفع لا حقا المتصوّفة إلى أن يجدوا في هذه الأخبار ما يبرر اتّجاههم الخاص في الجهاد وفهمهم له؟

ووردت أخبار فضّلت الجهاد بالنّفس والمال في سبيل الله (حَدَّثَنَا أَبُو الْيَمَانِ أَخْبَرَنَا شُعَيْبٌ عَنْ الزُّهْرِيِّ قَالَ حَدَّثَنِي عَطَاءُ بْنُ يَزِيدَ اللَّيْثِيُّ أَنَّ أَبَا سَعِيدٍ الْخُدْرِيَّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ حَدَّثَهُ قَالَ قِيلَ يَا رَسُولَ اللَّهِ أَيُّ النَّاسِ أَفْضَلُ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مُؤْمِنٌ يُجَاهِدُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِنَفْسِهِ وَمَالِهِ قَالُوا ثُمَّ مَنْ قَالَ مُؤْمِنٌ فِي شِعْبٍ مِنْ الشِّعَابِ يَتَّقِي اللَّهَ وَيَدَعُ النَّاسَ مِنْ شَرِّهِ)[77]. وأشارت فئة ثالثة إلى جهاد في سبيل رعاية الوالدين كما في هذا الخبر (حَدَّثَنَا آدَمُ حَدَّثَنَا شُعْبَةُ حَدَّثَنَا حَبِيبُ بْنُ أَبِي ثَابِتٍ قَالَ سَمِعْتُ أَبَا الْعَبَّاسِ الشَّاعِرَ وَكَانَ لَا يُتَّهَمُ فِي حَدِيثِهِ قَالَ سَمِعْتُ عَبْدَ اللَّهِ بْنَ عَمْرٍو رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا يَقُولُ جَاءَ رَجُلٌ إِلَى النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَاسْتَأْذَنَهُ فِي الْجِهَادِ فَقَالَ أَحَيٌّ وَالِدَاكَ قَالَ نَعَمْ قَالَ فَفِيهِمَا فَجَاهِدْ). وقد أشار مالك بن أنس نفسه إلى أنّ الابن عليه أن لا يكابر الأبوين[78].

* **الملاحظة الرابعة:** دفع العموم الذي بدا عليه المبحث في النصّ القرآنيّ إلى ظهور أحاديث تدقّق وأخرى تُمْعِنُ في التّفاصيل أخذت في تفريع مسائل لا علاقة لها مباشرة بالموضوع بل تتصل به من بعيد من حديث عن الخيل باعتبارها وسيلة الجهاد وعدم حمل القرآن لأرض العدوّ وباب الغزو على الحمير وباب السرعة في السير وباب الجاسوس وباب الأسارى في السلاسل وباب من تكلّم بالفارسيّة والرّطانة والتعوّذ من الجبن وبَاب فَضْلِ الطَّلِيعَةِ ...الخ.

* **الملاحظة الخامسة:** أُقحِمَت ألفاظٌ أخرى ذات صلة بالجهاد وتعكس حقيقة فهمهم له والذي لا يعدو أن يكون وسيلة لتحقيق الغنائم ولذلك استعملوا ألفاظا مثل (الغزو) و(المغانم) ...الخ.

76 مالك بن أنس، الموطّأ، ج3، ص 632، (ح1619).

77 البخاري، الصحيح، ج2، ص 302، (ح2786).

78 مالك بن أنس، الموطأ، ج3، ص 639، (ح1635).

* **الملاحظة السادسة:** تواترت الأحاديث والأخبار التي ترغّب في فعل الجهاد، وهو عمل نعتبره على درجة من الأهميّة لأنّه يعكس وعيا بما أشرنا إليه سابقا من وجود رفض لهذا المسلك في تكريس الدّعوة إذ لا وجود لمتحمّسين للجهاد في مقابل وجود رافضين له. ويكون التّرغيب بالإشارة إلى مصير المجاهد في سبيل الله وهو الجنّة أو بضمان عودته سالما أو بغنيمة[79]، أو بإبراز رغبة الرّسول في القتال حتّى أنّه تمنّى أن يقتل ويحي ثمّ يقتل في سبيل الله فيحي فيقتل[80]، أو بنقل أخبار تتحدّث عن درجات للمجاهدين[81]، والذهاب مذهب التفصيل عند الحديث عن الجزاء الآخروي حيث الوعد بالجنّة[82] وتصوير لدار الشهداء تصويرا خياليّا كما يتضمنه هذا الخبر (حَدَّثَنَا مُوسَى حَدَّثَنَا جَرِيرٌ حَدَّثَنَا أَبُو رَجَاءٍ عَنْ سَمُرَةَ قَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ رَأَيْتُ اللَّيْلَةَ رَجُلَيْنِ أَتَيَانِي فَصَعِدَا بِي الشَّجَرَةَ فَأَدْخَلَانِي دَارًا هِيَ أَحْسَنُ وَأَفْضَلُ لَمْ أَرَ قَطُّ أَحْسَنَ مِنْهَا قَالَا أَمَّا هَذِهِ الدَّارُ فَدَارُ الشُّهَدَاءِ)[83]، والإشارة إلى الحور العين وذكر لصفاتهنّ (يُحَارُ فِيهَا الطَّرْفُ شَدِيدَةُ سَوَادِ الْعَيْنِ شَدِيدَةُ بَيَاضِ الْعَيْنِ)[84]، والحديث عن ظلّ الملائكة على الشّهيد (حَدَّثَنَا صَدَقَةُ بْنُ الْفَضْلِ قَالَ أَخْبَرَنَا ابْنُ عُيَيْنَةَ قَالَ سَمِعْتُ مُحَمَّدَ بْنَ الْمُنْكَدِرِ أَنَّهُ سَمِعَ جَابِرًا يَقُولُ جِيءَ بِأَبِي إِلَى النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَقَدْ مُثِّلَ بِهِ وَوُضِعَ بَيْنَ يَدَيْهِ فَذَهَبْتُ أَكْشِفُ عَنْ وَجْهِهِ فَنَهَانِي قَوْمِي فَسَمِعَ صَوْتَ صَائِحَةٍ فَقِيلَ ابْنَةُ عَمْرٍو أَوْ أُخْتُ عَمْرٍو فَقَالَ لِمَ تَبْكِي أَوْ لَا تَبْكِي مَا زَالَتْ الْمَلَائِكَةُ تُظِلُّهُ بِأَجْنِحَتِهَا قُلْتُ لِصَدَقَةَ أَفِيهِ حَتَّى رُفِعَ قَالَ رُبَّمَا قَالَهُ)[85]، وأنّ الجنّة تحت بارقة السّيوف (حَدَّثَنَا عَبْدُ اللَّهِ بْنُ مُحَمَّدٍ حَدَّثَنَا مُعَاوِيَةُ بْنُ عَمْرٍو حَدَّثَنَا أَبُو إِسْحَاقَ عَنْ مُوسَى بْنِ عُقْبَةَ عَنْ سَالِمٍ أَبِي النَّضْرِ مَوْلَى عُمَرَ بْنِ عُبَيْدِ اللَّهِ وَكَانَ كَاتِبَهُ قَالَ كَتَبَ إِلَيْهِ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ أَبِي أَوْفَى رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ وَاعْلَمُوا أَنَّ الْجَنَّةَ تَحْتَ ظِلَالِ السُّيُوفِ. تَابَعَهُ الْأُوَيْسِيُّ عَنْ ابْنِ أَبِي الزِّنَادِ عَنْ مُوسَى بْنِ عُقْبَةَ)[86].

فالمجاهد في سبيل الله هو مجاهد أيديولوجي يكسب في الدنيا والآخرة: يكسب في الدنيا غنائم إذا بقي حيّا، وإذا قتل تكون المكافأة أكبر. والحديث عن أنّ المسلمين الذين سيكسبون مكافآت كبيرة في الحالتين أمر شائع في النصّ القرآنيّ وزادته الأخبار والأحاديث شيوعا.

* **الملاحظة السابعة:** غلب البعد الدنيوي على الجهاد وتحديدا الرّبح الماديّ من خلال الحديث عن تقسيم المقاسم والغنائم والأنفال والخمس من الأنفال والغلول... الخ. وهو ما نبّه إلى أنّ الدوافع غالبا ما تعكس

79 البخاري، الصحيح، ج2، ص ص 302-303، (ح2787).
80 مالك بن أنس، الموطأ، ج3، ص 663 (ح1690)
81 البخاري، الصحيح، ج2، ص 303، باب درجات المجاهدين في سبيل الله.
82 البخاري، الصحيح، ج2، ص ص 303-304، (ح2790)
83 البخاري، الصحيح، ج2، ص 304، (ح 2791)
84 البخاري، الصحيح، ج2، ص 304، باب حور العين وصفاتهنّ.
85 البخاري، الصحيح، ج2، ص 310، (ح 2816)
86 البخاري، الصحيح، ج2، ص 311، باب الجنّة تحت بارقة السّيوف.

مصلحة متغلغلة في النّفس قبل الإسلام، مصلحة اكتساب الثروة المادية بدلا من الفائدة الدينية من الجهاد في سبيل الله. فالجهاد أضحى مناسبة لتحسين الحالة الاقتصادية وتلك عادة قبليّة قديمة كان غرضها مكسبا ماديّا واضحا.

* **الملاحظة الثامنة:** هناك تعميمات في النصّ القرآنيّ تتصل بالجزاء ملأها العلماء وحرصوا على الإغراء. فالحديث على حوريّات إغراء مادّي وجنسي يعوّض المكبوت الاجتماعيّ لدى المسلم والهدف من إثارته هو التأثير في قرار الخروج إلى الجهاد من عدمه والذي يصبح عاطفيّا وليس عقليّا. والتوسّع في تفسير ما وعد به النصّ القرآنيّ المجاهد من مجالات المغفرة مع تناسي الصّفات التي حدّدها له فممن يمكن أن يُغفر له بعد أن يخرج إلى الجهاد في سبيل الله قاتل النفس[87] أو شارب الخمرة (حَدَّثَنَا عَلِيُّ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ حَدَّثَنَا سُفْيَانُ عَنْ عَمْرٍو سَمِعَ جَابِرَ بْنَ عَبْدِ اللَّهِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا يَقُولُ اصْطَبَحَ نَاسٌ الْخَمْرَ يَوْمَ أُحُدٍ ثُمَّ قُتِلُوا شُهَدَاءَ فَقِيلَ لِسُفْيَانَ مِنْ آخِرِ ذَلِكَ الْيَوْمِ قَالَ لَيْسَ هَذَا فِيهِ). وبهذا الشّكل يصبح الجهاد وسيلة للتّكفير عن الخطايا والذّنوب.

* **الملاحظة التّاسعة:** تسرّب الحديث عن الشهيد واتّساع عدد من يصنّفون شهداء عند الجهاد. وهذا خبر يعكس اتّساع المشمولين بصفة الشهيد (حَدَّثَنَا عَبْدُ اللَّهِ بْنُ يُوسُفَ أَخْبَرَنَا مَالِكٌ عَنْ سُمَيٍّ عَنْ أَبِي صَالِحٍ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ الشُّهَدَاءُ خَمْسَةٌ الْمَطْعُونُ وَالْمَبْطُونُ وَالْغَرِقُ وَصَاحِبُ الْهَدْمِ وَالشَّهِيدُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ)[88]، بل إنّ المتوفّى بمرض الطّاعون يصنّف شهيدا حسب ما يثبته هذا الخبر (حَدَّثَنَا بِشْرُ بْنُ مُحَمَّدٍ أَخْبَرَنَا عَبْدُ اللَّهِ أَخْبَرَنَا عَاصِمٌ عَنْ حَفْصَةَ بِنْتِ سِيرِينَ عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عَنْ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ الطَّاعُونُ شَهَادَةٌ لِكُلِّ مُسْلِمٍ)[89].

* **الملاحظة العاشرة:** غلبة العقليّة الذكوريّة المهووسة بذكوريّتها في التّعامل مع جهاد النّساء والنساء المجاهدات فأقصين بحجّة عدم قدرتهنّ على الجهاد وقُصِرَ دورهنّ على القيام بالعبادات الأخرى في مثل هذا الخبر الذي حدّث به (مُحَمَّدُ بْنُ كَثِيرٍ أَخْبَرَنَا سُفْيَانُ عَنْ مُعَاوِيَةَ بْنِ إِسْحَاقَ عَنْ عَائِشَةَ بِنْتِ طَلْحَةَ عَنْ عَائِشَةَ أُمِّ الْمُؤْمِنِينَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قَالَتْ اسْتَأْذَنْتُ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي الْجِهَادِ فَقَالَ جِهَادُكُنَّ الْحَجُّ وَقَالَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ الْوَلِيدِ حَدَّثَنَا سُفْيَانُ عَنْ مُعَاوِيَةَ بِهَذَا)[90].

87 مالك بن أنس، الموطأ، ج3، ص 655 (ح1673)
88 البخاري، الصحيح، ج2، ص 314، (ح 2829)
89 البخاري، الصحيح، ج2، ص 314، (ح 2830)
90 البخاري، الصحيح، ج2، ص 325، (ح 2875)

تحطّ هذه الأخبار من دور المرأة وتضعف مساهمتها في مجال الجهاد على أهميّة ما تقوم من سقي وتغذية ومداواة وحماسة كما يعكسها هذا الخبر: (حَدَّثَنَا أَبُو مَعْمَرٍ حَدَّثَنَا عَبْدُ الْوَارِثِ حَدَّثَنَا عَبْدُ الْعَزِيزِ عَنْ أَنَسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: لَمَّا كَانَ يَوْمُ أُحُدٍ انْهَزَمَ النَّاسُ عَنْ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ وَلَقَدْ رَأَيْتُ عَائِشَةَ بِنْتَ أَبِي بَكْرٍ وَأُمَّ سُلَيْمٍ وَإِنَّهُمَا لَمُشَمِّرَتَانِ أَرَى خَدَمَ سُوقِهِمَا تَنْقُزَانِ الْقِرَبَ وَقَالَ غَيْرُهُ تَنْقُلَانِ الْقِرَبَ عَلَى مُتُونِهِمَا ثُمَّ تُفْرِغَانِهِ فِي أَفْوَاهِ الْقَوْمِ ثُمَّ تَرْجِعَانِ فَتَمْلَآنِهَا ثُمَّ تَجِيئَانِ فَتُفْرِغَانِهَا فِي أَفْوَاهِ الْقَوْمِ»[91].

لقد انفتح مفهوم الجهاد في كتب الصحاح على معنى القتل والقتال وارتبط بالغزو والمغانم فكان دنيويّا ماديّا صرفا صدى لعادات وتقاليد فيها ما هو من قبل الإسلام أكثر مما نادى به أو تطبيقا لما جاء به. ولئن كان من الصعب تحديد الأساس التّاريخيّ والسياسيّ لهذه الأخبار في هذا البحث فإنّها توفّر العزاء للمقاتلين وتشكّل حافزا وتشجيعا للمتحاربين باسم الإسلام. فهل لعبت نصوص السيرة الدور نفسه؟

2/ فهم الجهاد في التجربة النبويّة:

لقد تبيّنا أنّ من بين المطلوب مجاهدتهم حسب النصّ القرآنيّ هم المنافقون وقد خاطبت الآية الرسول وطلبت منه الإغلاظ معهم وهو ما التقطه كتّاب السيرة وبنوا عليه أخبارا حاولت تقريب ما كان يفعل الرّسول معهم وتمثّله. وقد أورد ابن هشام في سيرته مثالا على ذلك وسمه بـ (طَرْدُ الْمُنَافِقِينَ مِنْ مَسْجِدِ الرَّسُولِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) وقدّم قصّة طويلة نوردها دون حذف أو تصرّف. وإذ نقدّمها بهذا الطّول فلنتعرّف على الطريقة التي تمثّل بها كتّاب السيرة الإشارات الواردة في النصّ القرآنيّ وكيف حبكوا القصص من حولها. والقصّة هي «كَانَ هَؤُلَاءِ الْمُنَافِقُونَ يَحْضُرُونَ الْمَسْجِدَ فَيَسْتَمِعُونَ أَحَادِيثَ الْمُسلمين ويسخرون ويستهزءون بِدِينِهِمْ، فَاجْتَمَعَ يَوْمًا فِي الْمَسْجِدِ مِنْهُمْ نَاسٌ، فَرَآهُمْ رَسُولُ اللَّهِ (ص) يَتَحَدَّثُونَ بَيْنَهُمْ خَافِضِي أَصْوَاتَهُمْ قَدْ لَصِقَ بَعْضُهُمْ بِبَعْضٍ فَأَمَرَ بِهِمْ رَسُولُ اللَّهِ (ص) فَأُخْرِجُوا مِنْ الْمَسْجِدِ **إِخْرَاجًا عَنِيفًا**. فَقَامَ أَبُو أَيُّوبَ خَالِدُ بْنُ زَيْدِ بْنِ كُلَيْبٍ إِلَى عمر بْنِ قَيْسٍ أَحَدِ بَنِي غَنْمِ بْنِ مَالِكِ بْنِ النَّجَّارِ -كَانَ صَاحِبَ آلِهَتِهِمْ فِي الْجَاهِلِيَّةِ- **فَأَخَذَ بِرِجْلِهِ فَسَحَبَهُ حَتَّى أَخْرَجَهُ مِنْ الْمَسْجِدِ** وَهُوَ يَقُولُ: أَتُخْرِجُنِي يَا أَبَا أَيُّوبَ مِنْ مِرْبَدِ بَنِي ثَعْلَبَةَ؟ ثُمَّ أَقْبَلَ أَبُو أَيُّوبَ أَيْضًا إِلَى رَافِعِ بْنِ وَدِيعَةَ -أَحَدِ بَنِي النَّجَّارِ- **فَلَبَّبَهُ بِرِدَائِهِ ثُمَّ نَتَرَهُ نَتْرًا شَدِيدًا وَلَطَمَ وَجْهَهُ** ثُمَّ أَخْرَجَهُ مِنْ الْمَسْجِدِ وَأَبُو أَيُّوبَ يَقُولُ لَهُ: أُفٍّ لَكَ مُنَافِقًا خَبِيثًا، أَدْرَاجَكَ يَا مُنَافِقُ مِنْ مَسْجِدِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ... وَقَامَ عِمَارَةُ بْنُ حَزْمٍ إِلَى زَيْدِ بْنِ عَمْرٍو - وَكَانَ رَجُلًا طَوِيلَ اللِّحْيَةِ- **فَأَخَذَ بِلِحْيَتِهِ فَقَادَهُ بِهَا قَوْدًا عَنِيفًا حَتَّى أَخْرَجَهُ مِنْ الْمَسْجِدِ ثُمَّ جَمَعَ عِمَارَةُ يَدَيْهِ فَلَدَمَهُ بِهِمَا فِي صَدْرِهِ لَدْمَةً خَرَّ مِنْهَا**. قَالَ: يَقُولُ: خَدَشْتَنِي يَا عِمَارَةُ، قَالَ: أَبْعَدَكَ اللَّهُ يَا مُنَافِقُ، فَمَا أَعَدَّ اللَّهُ لَكَ مِنْ الْعَذَابِ أَشَدُّ مِنْ ذَلِكَ فَلَا تَقْرَبَنَّ مَسْجِدَ رَسُولِ اللَّهِ (ص)

91 البخاري، الصحيح، ج2، ص 326، (ح 2880)

... وَقَامَ أَبُو مُحَمَّدٍ رَجُلٌ مِنْ بَنِي النَّجَّارِ كَانَ بَدْرِيًّا وَأَبُو مُحَمَّدٍ مَسْعُودُ ... إِلَى قَيْسِ بْنِ عَمْرِو بْنِ سَهْلٍ - وَكَانَ قَيْسٌ غُلَامًا شَابًّا- وَكَانَ لَا يُعْلَمُ فِي الْمُنَافِقِينَ شَابٌّ غَيْرُهُ، فَجَعَلَ **يَدْفَعُ فِي قَفَاهُ** حَتَّى أَخْرَجَهُ مِنْ الْمَسْجِدِ.

وَقَامَ رَجُلٌ مِنْ بَلْخُدْرَةَ بْنِ الْخَزْرَجِ -رَهْطِ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ- يُقَالُ لَهُ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ الْحَارِثِ حَيْنَ أَمَرَ رَسُولُ اللَّهِ (ص) بِإِخْرَاجِ الْمُنَافِقِينَ مِنْ الْمَسْجِدِ إِلَى رَجُلٍ يُقَالُ لَهُ الْحَارِثُ بْنُ عَمْرٍو - وَكَانَ ذَا جُمَّةٍ- **فَأَخَذَ بِجُمَّتِهِ فَسَحَبَهُ بِهَا سَحْبًا عَنِيفًا عَلَى مَا مَرَّ بِهِ مِنْ الْأَرْضِ** حَتَّى أَخْرَجَهُ مِنْ الْمَسْجِدِ. قَالَ: يَقُولُ الْمُنَافِقُ: لَقَدْ أَغْلَظْتَ يَا بن الْحَارِثِ، فَقَالَ لَهُ: إنَّكَ أَهْلٌ لِذَلِكَ. أَيْ عَدُوُّ اللَّهِ لَمَّا أَنْزَلَ اللَّهُ فِيكَ فَلَا تَقْرَبَنَّ مَسْجِدَ رَسُولِ اللَّهِ (ص) فَإِنَّكَ نَجِسٌ. وَقَامَ رَجُلٌ مِنْ بَنِي عَمْرِو بْنِ عَوْفٍ إلَى أَخِيهِ زُوَيِّ بْنِ الْحَارِثِ فَأَخْرَجَهُ مِنْ الْمَسْجِدِ **إِخْرَاجًا عَنِيفًا** وَأَفَّفَ مِنْهُ وَقَالَ: غَلَبَ عَلَيْكَ الشَّيْطَانُ وَأَمْرُهُ. فَهَؤُلَاءِ مَنْ حَضَرَ الْمَسْجِدَ يَوْمئِذٍ مِنْ الْمُنَافِقِينَ وَأَمَرَ رَسُولُ اللَّهِ (ص) بِإِخْرَاجِهِمْ»[92].

دارت أحداث هذا الخبر في مكان مقدّس عند المسلمين هو المسجد الذي يفترض أن يكون مكانا للخشوع والعبادة وبحضور رمز الأمّة وصاحب الرسالة محمّد ومريدين له، وكان بقصّته المطوّلة فرصة ليستمتع كاتبه وناقله بالتعامل الفضّ مع المنافقين دون أن يحدّد ما هو السلوك الذي آتوه. فقد اتّخذ الرسول واسطة بينه وبين المنافقين الذين لم تكن ملامح النّفاق بادية عليهم حسب الخبر إذ يُفترض أن يُظهروا ما لا يبطنون وليس كما وصفهم الكاتب أظهروا ما يبطنون (يسخرون ويستهزؤون...). والنصّ القرآني لا يشير على الرّسول باعتماد وسطاء في التّعامل معهم بل أن يغلظ لهم بنفسه دون أن يحدّد ماذا يغلظ لهم.

لقد اختار مؤلّف الخبر الإغلاظ فعلا كما يدلّ عليه معجم العنف الذي كان لافتا (إِخْرَاجًا عَنِيفًا / فَأَخَذَ بِرِجْلِهِ فَسَحَبَهُ، حَتَّى أَخْرَجَهُ مِنْ الْمَسْجِدِ / فَلَبَّبَهُ بِرِدَائِهِ ثمَ نَتَرَهُ نَتْرًا شَدِيدًا، وَلَطَمَ وَجْهَهُ / فَأَخَذَ بِلِحْيَتِهِ فَقَادَهُ بِهَا قَوْدًا عَنِيفًا حَتَّى أَخْرَجَهُ مِنْ الْمَسْجِدِ، ثُمَّ جَمَعَ عِمَارَةُ يَدَيْهِ فَلَدَمَهُ بِهِمَا فِي صَدْرِهِ لَدْمَةً خَرَّ مِنْهَا / يَدْفَعُ فِي قَفَاهُ / فَأَخَذَ بِجُمَّتِهِ فَسَحَبَهُ بِهَا سَحْبًا عَنِيفًا عَلَى مَا مَرَّ بِهِ مِنْ الْأَرْضِ / فأخرجه ... إِخْرَاجًا عَنِيفًا)، في الوقت الذي كان يمكن أن يكون الإغلاظ قولا ينتهي بطردهم من المسجد مثلا وإن كنّا نشك في جرأتهم التي قد تدفعهم للقدوم حدّ المساجد.

يمثّل هذا المثال دليلا على أنّ تمثّل المسلمين عامّة كانوا أو خاصّة لعناصر ذات صلة بالجهاد يبقى تحت تأثير واقعهم به ومنه يفهمون ما ورد في النصّ.

92 ابن هشام، السيرة النبوية، ج1، ص ص 528 - 529.

الخاتمة:

لقد حاولنا في هذا البحث التنقّل بَيْن الأصول القرآنيّة لمفهوم الجهاد أو ما سمّيناه الطرح القرآنيّ ونبّهنا إلى تأويلاته الفقهيّة وأشرنا إلى بعض استعمالاته التاريخيّة المختلفة ووقفنا عند صورة من صور إجرائه في الواقع التاريخي. وكانت الغاية من بعد كلّ ذلك كشف البعد التأويلي الذي خضع له هذا المفهوم الذي دخل مسارات الأدلجة التي توجه حياة الفرد والجماعة بعدما تعاضد النصّ القرآنيّ الذي أغرى بتعميمه والسنّة التي فصّلت عمومه ودققته فأنتجا ما يلاحظ اليوم من إقبال على الجهاد وتوق إلى الموت من أجل نيل الوعود خاصّة وقد زاد التّمثّلُ الطين بلّة إذ تمثّل المسلم الجهاد على أنّه قسوة في قسوة قتلا وتقتيلا وتشدّدا، فتلاشى تعدّد الدلالات سواء لمعنى الجهاد أو فيمن يكون أو من يقوم به بتأثير من الفقيه أساسا وتمّ السير انزياحا بالتعدّد نحو معنى واحد هو القتل بل التقتيل.

ولذلك -وبعيدا عن الدعوات التلفيقيّة التي تصنّف الآيات التي ذكر فيها الجهاد على أنّها آيات فرعيّة وأنّ الآيات الأصليّة في النصّ القرآنيّ وفي الدين الإسلاميّ هي الآيات الأخلاقيّة- نرى أنّه لابدّ من تناول هذه الآيات بالجرأة اللاّزمة اعترافا أوّلا بما فيها من دلالات تحضّ على التعامل مع الآخر بقسوة وتشدّد بعد فشل طريقة في الدعوة أساسها القوّة الماديّة وثانيا بتاريخيّتها التي تفرض ضرورة مراجعتها مراجعة عميقة وجذريّة بعدما أصبح أساس العلاقة مع الآخر هو الأيديولوجي بدل الإنسانيّ.

لابدّ من تفهّم انتقال المسلمين من هوية شخصية ومجتمعية وبنية اجتماعية ما قبل إسلاميّة إلى ما بعد إسلاميّة وأنّه كان انتقالا مؤلما ولم يكن خطيا ولا بسلاسة، لكن لابدّ من التأكّد من أنّه لا يمكن للأيديولوجيا أو لصاحب الأيديولوجيا أو للمنتصر أيديولوجيّا في زمن ما ومكان ما أن يقضي على المواقف المخالفة وأن يسود أو يكون سيّدا دائما. إنّ المبالغة في فهم الجهاد والتّمادي فيه يؤثّران على الدين أولاّ وعلى الثّقافة ثانيا. لقد تباينت داخل «الأمة» المواقف من الجهاد وعوض أن ينظر إلى الآخر ببساطة ويتمّ قبوله واحترامه تمّت محاربته وكان السّعي كلّ السّعي لوأد كلّ صلة يمكن أن تنعقد معه، ولهذه الثقافة تاريخ عميق مع الوأد.

قائمة المصادر والمراجع:

1- المصادر:

* ابن أنس (مالك)، الموطأ، تحقيق محمد مصطفى الأعظمي، أبوظبي/ دولة الإمارات العربيّة المتّحدة، مؤسسة زايد بن سلطان آل نهيان للأعمال الخيريّة والإنسانية، ط1، دت.

* البخاري (محمد بن اسماعيل)، الجامع الصحيح المسند من حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم وسننه وأيّامه، تحقيق محبّ الدين الخطيب وقصي محب الدين الخطيب ومحمد فؤاد عبد الباقي، القاهرة، المطبعة السلفيّة ومكتبتها، 1400هـ.

* ابن عبّاد (الصاحب اسماعيل)، المحيط في اللغة، تحقيق محمدّ حسن آل ياسين، بغداد، مطبعة المعارف، ط1، 1395هـ/ 1975م.

* القرآن الكريم.

*ابن منظور (جمال الدين)، لسان العرب، مذيل بحواشي اليازجي وجماعة من اللغويين، بيروت، دار صادر، ط3، 1414هـ.

* ابن هشام (عبد الملك)، السيرة النبوية، تحقيق مصطفى السقّا وإبراهيم الأبياري وعبد الحفيظ الشلبي، مصر، شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده بمصر، ط 2، 1375هـ - 1955 م.

2- المراجع:

أ- المراجع العربيّة أو المعرّبة:

* أركون (محمد)، القرآن من التفسير الموروث إلى تحليل الخطاب الديني، ترجمة وتعليق هاشم صالح، بيروت لبنان، دار الطليعة للطباعة والنشر، ط2، آذار/ مارس 2005.

*أسمان (يان)، التمييز الموسوي أو ثمن التوحيديّة، ترجمة حسام الحيدري، كولونيا/بغداد، منشورات الجمل، ط1، 2006.

* شعث (تهاني جبر)، ألفاظ الجهاد في القرآن: دراسة دلالية، إشراف صادق عبد الله أبو سلمان، بحث لنيل شهادة الماجستير في العلوم اللغوية، غزّة، جامعة الأزهر، كليّة الآداب والعلوم الإنسانية، 1432 هـ / 2011م.

* الشوكاني (محمد بن علي)، السّيل الجرّار المتدفق على حدائق الأزهار، دار ابن حزم، ط1، دت.

* عمامو (حياة)، أصحاب محمد ودورهم في نشأة الإسلام، تونس، دار الجنوب للنشر، 1996.

* القسطلاني (شهاب الدين الخطيب)، إرشاد الساري لشرح صحيح البخاري، بهامشه صحيح مسلم بشروح النووي، مصر، المطبعة الأميرية ببولاق، 1323هـ، ج 5، ص 31.

* مجموعة من الباحثين، المصحف وقراءاته، الرّباط، مؤسسة مؤمنون بلا حدود للدراسات والأبحاث، ط1، 2016م.

* ياسين (محمد نعيم)، حقيقة الجهاد في الإسلام، الكويت، دار الأرقم للنشر والتوزيع، ط1، 1404 هـ/ 1984م.

ب- المراجع الغربيّة:

* Article (gihad), EI2 , Tome II, pp.551-553.

* Brockett. A., article Munáfikún, in EI 2 , vol 7, pp 561-562.

* Reuven Firestone, Jihad: The Origin of Holy War in Islam, New York - Oxford, Oxford University Press, 1999.

* M.Rodinson, Mohomet ,ed du Seuil, 1961.

MominounWithoutBorders

Mominoun

@ Mominoun_sm

مؤمنون بلا حدود
Mominoun Without Borders
للدراسات والأبحاث www.mominoun.com

الرباط – أكدال. المملكة المغربية

ص ب : 10569

الهاتف : 54 99 77 537 212+

الفاكس : 27 88 77 537 212+

info@mominoun.com

www.mominoun.com

جميع الحقوق محفوظة © 2017

All rights reserved © 2017